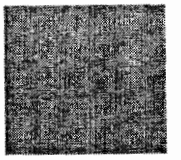

موقعة المتمة 1897م

د. جعفر محمد دياب

أستاذ مشارك - قسم التاريخ

كلية التربية - جامعة الخرطوم

مجلة

كلية التربية — جامعة الخرطوم

العدد الثالث — السنة الثانية

ديسمبر 2008م

ذو الحجة 1429هـ

موقعة المتمة 1897م

د. جعـفر محمـد ديـاب

مستخلص البحث

موقعة المتمة هي المعركة التي دارت بين قوات المهدية بقيادة محمود ود أحمد و الجعليين في الأول من يوليو 1897م.وكانت حملة محمود ود أحمد قد أرسلها الخليفة عبد الله لمقابلة قوات كتشنر ظناً منه أن الأخيرة سوف تسلك طريق الصحراء من منطقة الشايقية لتصل إلى النيل عند بلدة المتمة.رفض الجعليون بقيادة زعيمهم عبد الله ود سعد التعاون مع قوات المهدية وتحصنوا داخل البلدة إلا أن صمودهم لم يستمر كثيراً فتعرضوا للهزيمة .ومن ثم استباحت قوات المهدية منطقة الجعليين بأكملها لمدة ثلاثة أيام الشيء الذي لم يكن الخليفة عبد الله راضياً عنه.

مقدمة:

حينما اندلعت الثورة المهدية في أغسطس 1881م، وجدت تجاوباً وتأييداً من معظم القبائل السودانية، وكان الجعليون من أوائل القبائل التي انضمت إلى المهدي. وقد أسهم ذلك بفاعلية في نجاح الثورة المهدية .

وتذكر المصادر أن أول من رفع راية المهدية في مديرية بربر هو أحمد حمزة السعدابى وهو من أقرباء الملك نمر وكان قد هاجر إلى المهدي في كردفان في العام "1883م" وحضر معه واقعة شيكان وعينه المهدي أميراً على قومه [1].

كذلك من الذين هاجروا إلى المهدي في كردفان عبد الله ود سعد وهو من زعماء الجعليين في المتمة فأعطاه المهدي أمارة لأخيه الأكبر الحاج على ود سعد الذي قبل الأمارة وجمع قومه للجهاد وإنضم إلى محمد الخير الذي أشعل الثورة في مديرية بربر وبايعه بإسم المهدي وكان ذلك في أبريل 1884.

تمكن الجعليون فور انضمامهم إلى المهدية من طرد قوات الحكومة التي كانت في المنطقة. فقد كانت هنالك حامية حكومية في منطقة السبلوقة قام الجعليون بمضايقتها مما اضطرها إلى التقهقر إلى شندي. وعلى رغم من تحصنها في ديوان الحكومة إلا أنها

حوصرت من قبل الجعليين وأخيراً وصلت إلى بربر. وبذلك أصبحت منطقة الجعليين خاليـة تماماً تقريباً من قوات الحكومة منذ أبريل 1884. ودانت بالولاء للمهدية.

كذلك تمكن الجعليون من قطع خط التلغراف بين بربر والخرطوم في مارس 1884 . كما أرسل محمد الخير بعض رجاله فقطعوه بين بربر ومصر. يصف شقير ذلك بأنه كان من أكبر الضربات على غردون[2]. والمعروف أنه منذ ذلك الحين انقطعت أخبار غردون عن القـاهرة تقريبا. وشارك الجعليون بقيادة أميرهم الحاج على ود سعد في حصار بربر 1884 إلـى أن استولى عليها الأنصار.

ولكن من أشهر وأهم مواقف الجعليين خلال الثورة المهدية موقفهم من الحملة التي أرسلت لإنقاذ غردون في أواخر العام 1884 بعد حصاره في الخرطوم والتي عرفت بحملة الإنقاذ. والمعروف أن هذه الحملة سلكت طريق الصحراء القصير كسباً للوقت لتصل إلى النيل عنـد المتمة. وحينما علم غردون بخبرها أرسل بعثة بقيادة نصحي باشا بالوابورات لمقابلتها فـي المتمة وكان ذلك في سبتمبر 1884 قبل أربعة شهور من وصولها المتمة فـي ينـاير1885. ويعكس هذا تلهف غردون على وصول الحملة واعتماده على ذلك. وعند وصول هذه القـوة إلى المتمة وجدت أهلها قد أقاموا الاستحكامات وبادروهم برمي الرصاص مما أضطرها إلى الانسحاب إلى شندي[3] على الجهة الأخرى من النيل.

والمعروف أن المهدي بدأ منذ مارس 1884 يحاصر الخرطوم من كل الجهات ويسعى لدخولها في أقرب فرصة ممكنة. ولذلك اهتم غاية الاهتمام بأمر حملة الإنقاذ وعمـل علـى إعاقتها بشتى السبل ومنعها من الوصول إلى غردون قبل استسلامه ما أمكن ذلك . ووضـع المهدي خطة لذلك بالتقاء الحملة في الصحراء شمال المتمة قبل وصولها النيل وبعد أن تكون قد أنهكها السير . ويتسق ذلك مع خطط المهدي الحربية في معظم معاركـه ضـد جيـوش الحكومة. ولتحقيق ذلك أرسل إلى منطقة المتمة قوة مكونة من ثلاثة ألاف من الأنصار بقيادة موسى ود حلو أخ الخليفة علي ود حلو وأمر محمد الخير بإرسال سرية لتنضم إليها. كـذلك نادى الحاج علي ود سعد بالنفير العام في بلاد الجعليين فاجتمع عنـده نحـو ثمانيـة ألـف مقاتل [4].

تجمعت كل قوات الأنصار هذه في منطقة أبار أبو طليح التي تقع في الصحراء إلى الشمال من المتمة. وعند وصول حملة الإنقاذ إلى هذه الآبار يوم16 يناير 1885 وجدوا الأنصار قد سبقوهم إليها وسيطروا عليها . ودارت عدة مناوشات بين الجانبين في هذه المنطقة . ففي فجر يوم 17يناير دارت معركة انهزم فيها الأنصار ويعزى شقير أسباب هزيمتهم إلى عدم التزامهم بالخطة التي وضعت وذلك بسبب شغفهم لملاقاة عدوهم .ولكن لم يؤثر ذلك كثيراً على قوات الأنصار فيما يبدو فقد هاجم الجعليون بقيادة زعيمهم الحاج على ود سعد مربع الإنجليز واخترقوه. ووصف شقير ما حدث قائلاً (فداروا (أي الجعليون)إلى ميسرة المربع ومؤخرته وحملوا عليه حملة صادقة فاخترقوه ودخلوا وسطه وتقهقر عساكر المؤخرة والميسرة إلى داخل المربع واختل نظامهم فاختلطوا بجمال الحملة وأشتبك القتال بالسيوف الحراب) [5].

وبلغت خسائر الإنجليز74 قتيلاً و94 جريحاً . أما خسائر الأنصار فقد كانت 1100 قتيل وجرح في هذه المعركة زعيم الجعليين على ود سعد .

وواصلت الحملة سيرها بعد ذلك نحو المتمة حيث كانت تنتظرها البواخر ولكن الأنصار عرقلوا سيرها مرة أخرى واشتبكوا معها في معركة بالقرب من المتمة يوم19/يناير 1885. وقد تولى قيادة جيش الأنصار هذه المرة النور عنقرة الذي أرسله المهدي على رأس قوة مدداً لموسى ود حلو. وفي هذه المعركة جرح إستيورات قائد حملة الإنقاذ جرحاً مميتاً وتولى القيادة بعده السير شارلس ولسون . وقد توفي إستيورات بالفعل فيما بعد متأثراً بهذا الجرح [6]

وقبل أن تتوجه الحملة إلى الخرطوم دخلت في معركة أخرى مع سكان المتمة ورموها بالقنابل. ولم تتحرك الحملة من المتمة في طريقها إلى الخرطوم إلا يوم 24 يناير أي قبل يوم واحد من دخول المهدي الخرطوم ومقتل غردون.

وعلى الرغم من أن هذه المناوشات لم تمنع تقدم الحملة نحو الخرطوم إلا أنها حققت للمهدى أهم هدف كان يرمى إليه وهو تأخير وصولها وفشل مهمتها في إنقاذ غردون. فكما ذكرت فقد وصلت الحملة إلى آبار أبو طليح يوم 16 يناير ثم دخلت في مناوشات متكررة مع

الجعليين ولم تغادر المتمة إلا يوم 24 يناير . أي بعد أكثر من أسبوع. وكانت هذه الفترة كافية ليحكم المهدي الحصار على غردون ومن ثم دخل الخرطوم فاتحاً يوم 25 يناير 1885 .ولم تصل الحملة إلى الخرطوم إلا بعد سقوطها بيد المهدي ومقتل غردون.

وبسبب هذا التأخير تعرض السير شارلس ولسون قائد الحملة البديل للنقد من قبل الانجليز الذين حملوه مسؤولية ما حدث وعزوا ذلك إلى تأخره في المتمة كل هذه الفترة . ودافع ولسون عن نفسه بأن الأحوال في المتمة فرضت عليه ذلك . ويرى شقير الذي هو نفسه كان ضابطاً في المخابرات المصرية حينها في هذا التأخير (أمراً موجباً للأسف مهما كانت الأسباب) [7].

أيضا من النتائج الجيدة التي حققتها هذه المناوشات أنها أفقدت الحملة الكثير من أفرادها . فقد قتل بضعهم وجرح البعض الأخر وكان على رأس القتلى قائد الحملة الأصلي إستيورات. وحتى عند تقهقر الحملة بعد عودتها من الخرطوم ناوشها الجعليون وقتلوا بعض أفرادها .وكذلك بسبب هذه المناوشات اضطر قادة الحملة إلى ترك بعض القوات على المحطات التي مروا بها لتأمين طريق عودتها فتركوا بعضها في الجكدول وبضعها في أبو طليح وأخرى في المتمة. وكان عدد الذين تحركوا من المتمة نحو الخرطوم 240 جندياً سودانياً و20جندياً إنجليزياً وضابطين [8].

مما سبق يتضح أن الجعليين وقفوا بشدة مع الثورة المهدية وشاركوا فيها بفاعلية. وعلى الرغم من الروايات الشفوية المتداولة في المنطقة والتي تقول أن تحول موقف الجعليين بدأ بعد وفاة المهدي مباشرة[9]. إلا أن الثابت أن الجعليين ظلوا على تأييدهم للمهدية على الأقل حتى بداية حملة الغزو1886.

فقد شارك الجعليون بقيادة زعيمهم حاج علي ود سعد في موقعة توشكي 1889. وانضموا إلى قائد الحملة عبد الرحمن النجومي الذي هو أصلاً من الجعليين، وكان عدد الذين شاركوا في هذه الحملة من الجعليين 500 مقاتل. ومهما يكن من أمر فان المصادر لا تشير إلى أي خلاف بين الخليفة عبد الله والجعليين قبل بداية حملة الغزو وإحتلال دنقلا 1896. وحول أسباب الخلاف بين الجانبين يذكر شقير أن الخليفة إستدعى عبد الله ود سعد بعد احتلال

دنقلا وفرض عليه عدداً معلوماً من أهله ليستنفرهم للجهاد وقدراً معيناً من المؤونة فثقل الطلب على عبد الله ود سعد وقرر العصيان [10].

ولكن الرواية الأكثر شيوعاً حول أسباب الخلاف هي ما ذكره شقير أيضاً من أن الخليفة عبد الله حينما علم بإنهزام قواته في دنقلا ظن أن كتشنر سوف يتخذ خطة اللورد ولسلى قائد حملة إنقاذ غردون فيقسم جيشه في كورتي إلى قسمين فيرسل إحداهما بطريق النيل إلى أبي حمد وبرير والأخر بطريق الصحراء إلى المتمة . فأرسل قائده محمود ود أحمد إلى المتمة ليصد جيش الصحراء [11].

وتعطى تقارير المخابرات المزيد من التفاصيل حول هذا الأمر وتذهب إلى أن الخليفة عبد الله وبعد تقدم حملة الإنقاذ كان متأكدا من انضمام الجعليين إليها ولذلك بدأ يتحوط لذلك . ففي البداية أصدر أوامره إلى الجعليين بالاستعداد للجهاد ومنعهم من الذهاب إلى دنقلا للتجارة . إلا أن الجعليين لم يلتزموا بذلك . فأرسل إلى عبد الله ودسعد ليحضر إلى أم درمان وطلب منه أن يرحل برجاله إلى الضفة الشرقية للنيل . تظاهر عبد الله ودسعد بإطاعة هذه الأوامر أمام الخليفة . ولكن الخليفة بدأ يشك فيه ولذلك أرسل في طلبه ليعود إلى ام درمان بعد مغادرته فما كان من عبد الله ودسعد إلا أن قبض على رسل الخليفة وواصل سيره إلى المتمة [12].

ولكن وأياً كانت الأسباب المباشرة لتفجر هذا الخلاف فالواقع أن الجعليين شأنهم في ذلك شأن معظم القبائل النيلية لم يكونوا راضين عن حكم الخليفة عبد الله. ومعروف أن بعض هذه القبائل أعلنت العصيان بعد وفاة المهدي مباشرة. ولذلك ربما شعر الجعليون بعد احتلال دنقلا وتقدم حملة الغزو جنوباً ان نهاية حكم الخليفة قد أوشكت فشجعهم ذلك على إعلان العصيان والتمرد .

وصل عبد الله ودسعد إلى المتمة عائداً من أم درمان يوم الأحد20/يونيو1897 وفور وصوله بدأ الاستعداد للمواجهة التي أصبحت حتمية مع قوات المهدية فقبض على بعض البقارة والجهادية الذين كانوا يجمعون الضرائب في المتمة كذلك حجز احدى المراكب التي كانت تحمل عائلات يونس الدكيم وعلي فرفار من بربر في طريقها إلى أم درمان[13]. أيضاً

أقام التحصينات حول المتمة استعداداً للمعركة وأرسل إلى زعماء الجعليين في قسمي المتمة و الزيداب يطلب منهم الحضور إلى المتمة.

ولما لم يكن مع الجعليين ما يكفي من الذخيرة والسلاح للصمود في وجه جيش المهدية الكثيف إتصل عبد الله ود سعد بقيادة الجيش الغازي يطلب منهم المساعدة. وكان رسوله إليهم وهم في منطقة الشايقية (مروي) ابن عمه إبراهيم حاج محمد ود فرح . والذي سلم الرسالة إلى سردار الجيش الانجليزي يوم 24 يونيو 1897 م الموافق22 محرم 1315هجرية. ويطلب فيها عبد الله ود سعد من كتشنر أن يمده بالرجال إن أمكن و إذا لم يتيسر ذلك فالسلاح والذخيرة. وأكد له تصميمه هو ورجال قبيلته على حرب الخليفة سواء وصلهم دعم أو لم يصل [14].

وكانت جيوش المهدية ومنذ حلول شهر المحرم 1315هجرية /يونيو 1897م قد توغلت في بلاد الجعليين متجهة شمالاً لمواجهة الجيش الغازي. وكان محمود ود أحمد قائد هذه الجيوش متأخرا بعض الشيء عن مقدمة جيشه. ولكن حينما بلغ الخليفة عبد الله خبر عصيان الجعليين طلب من محمود أن يسرع ويلحق بجيشه. وبدأ محمود منذ تحركه من ام درمان في موافاة الخليفة بأحوال الجيش وكل ما يتحصل عليه من أخبار الجعليين وجيش الغزو. وكان يستخدم في ذلك الرسائل اليومية وأحيانا أكثر من رسالة في اليوم الواحد. ويتضح اهتمام الخليفة بأخبار هذا الجيش من ردوده الفورية على هذه الرسائل وتوجيهاته المستمرة [15].

ولما كانت منطقة الجعليين تبدأ من شمال أم درمان مباشرة كان لابد لقادة الجيش ان يضمنوا ولاء سكان هذه المناطق قبل توغلهم في المنطقة شمالاً حتى يطمئنوا إلى حماية ظهر الجيش. ويبدو أن سكان تلك الجهات وبعد ما شاهدوا من كثافة الجيش تأكد لهم عدم مقدرتهم على مقاومته ولذلك طلبوا الأمان من قائده محمود. ومن هؤلاء سكان جزيرة نسري وزعيمهم احمد جاد الله الذي اخذه محمود معه رهينة حتى يضمن ولاء أهله. كذلك اجتمع القريشاب في منطقة ود الحبشي مع محمود وأعطاهم الأمان. وفي منطقة الهوبجي إلى الجنوب قليلاً من المتمة حيث عسكر الجيش في انتظار ان يلحق به قائده ، اجتمع زعيم السعداب في تلك المنطقة أحمد ود حمزه السعدابي بقادة الجيش الذين وجدوه (على غاية الصداقة والقيام في أمر الدين) [16].

ومن الهوبجي بدأ قادة الجيش في إرسال الطلائع لاستكشاف الأحوال بالمتمة حيث بدأت تتجمع لديهم بعض الأخبار.

وبعد أن لحق محمود بجيشه في منطقة الهوبجي تحرك به مباشرة نحو المتمة وبات بالقرب منها يوم الأربعاء 28 محرم 1315هـ /30يونيو1897م حيث أكمل استعداداته للمعركة. وفي صباح الخميس 29محرم1315هـ الموافق أول يوليو 1897م بدأ هجومه عليها[17].

كان مجموع القوة التي مع عبد الله ودسعد يقدر بحوالي ألفين إلى خمسمائة وألفين رجلاً ومعهم حوالي ثمانين بندقية فقط وكمية قليلة للغاية من الذخيرة . وقد تمركز معظم هذه القوة في الجزء الجنوبي من البلدة حيث كانت توجد التحصينات. إذ كان متوقعاً أن يبدا هجوم الأنصار من تلك الجهة . وبالفعل بدأ هجوم الأنصار في الجهة الجنوبية. وصمدت استحكامات الجعليين لبعض الوقت وتمكنوا من صد الهجوم الأول، إلا أن بعض الأنصار التفوا حول البلدة وهاجموها من الجهة الشمالية التي كانت استحكاماتها ضعيفة بعض الشيء فلم تصمد طويلاً إذ سرعان ما دخلوها من هناك. ويقدر عدد أفراد جيش المهدية الذي هاجم المتمة ما بين عشرة ألاف إلى اثني عشرة ألف رجل [18].

ولم تستمر المعركة أكثر من ربع ساعة وقتل فيها عبد الله ود سعد وكل من معه من الرجال ورؤساء الجعليين (ولم ينج منهم احد لداعي تصميمهم على الحرب)[19] .وقطع رأس عبد الله ود سعد وأرسل إلى الخليفة في أم درمان.

كانت هزيمة الجعليين في هذه الموقعة أمراً حتمياً ومتوقعاً إذ أن كل قرائن الأحوال كانت تشير إلى ذلك. فمن ناحية العدد لا توجد مقارنة بين القوة التي كانت مع محمود (10الف-12الف) وتلك التي كانت مع عبد الله ود سعد (2الف). كذلك كان الفارق كبيراً في التسليح . ويبدو أن ضيق الوقت لم يمكن عبد الله ود سعد من تجميع كل قوة الجعليين تحت قيادته ولذات السبب لم يستفد من اتصالاته مع الإنجليز إذ وصلت رسالته إلى كتشنر يوم 24يونيو1897 م أي قبل أسبوع واحد فقط من المعركة وهى فترة لا تكفي لوصول الأسلحة من مروى إلى المتمة عبر الصحراء على ظهور الدواب.

وتلوم المخابرات المصرية عبد الله ود سعد على تصميمه على البقاء في المتمة بينما كان ينبغي عليه أن يرحل منها شمالاً لمقابلة الجيش الإنجليزي حتى يتفادى الصدام مع الأنصار في تلك المرحلة. ولكن يبدو أن خروج عبد الله ود سعد من المتمة ،كان مستحيلاً لأسباب تاريخية. ولو كان ذلك ممكناً لما حدثت المعركة أصلاً. ولقد توفر لدي الجعليين الدافع المعنوي للصمود في وجه الأنصار دفاعاً عن بلدتهم إلا أن الطرف الأخر لم يكن يعوزه هذا الدافع. فالأمر بالنسبة للأنصار أمر جهاد دفاعاً عن الإسلام ويحدد مصير دولة بأكملها يتهددها الزوال و المعروف أن جيش الأنصار لم يكن هدفه النهائي المتمة وإنما كان يستعد لمقابلة حملة الغزو قبل وصولها إلى أم درمان.

بعد انتهاء المعركة لم يبقى محمود بجيشه في المتمة نفسها وإنما أقام معسكره خارجها في منطقة (القبة) التي تقع في الطرف الجنوبي من المتمة . ولم تكن خسائر الأنصار كبيرة إذ بلغ عدد القتلى ثمانية وثمانين رجلاً والذين جرحوا ثلاثة وثلاثين رجلاً وفقدوا في المعركة سبعة عشر فرساً وجرحت خمسة أخرى [21].

أما الأسلحة والذخائر التي أرسل عبد الله ود سعد في طلبها من الإنجليز فقد أرسلت بالفعل وهى حوالي عشر ومائة بندقية رمنقتون وكميات كبيرة من الذخيرة حملت على ظهور الجمال وأرسلت لتعبر الصحراء من مروى إلى المتمة ولكن حينما وصلت الجكدول وجدوا الأنباء بهزيمة الجعليين وسقوط البلدة في يد الأنصار وتم توزيع بعض هذه الأسلحة على الجعليين الذين فروا إلى منطقة الجكدول حيث كانت تقيم بها بعض القبائل المناوئة للمهدية . وأعيدت بقية الأسلحة إلى قيادة الحملة الانجليزية [22].

تركت هذه الهزيمة آ ثاراً كبيرة على المنطقة التي ظلت تعانى منها لفترة طويلة. وعلى الرغم من أنه لا توجد إحصائية بعدد الذين قتلوا من الجعليين. لكن يذكر محمود في أحد خطاباته إلى الخليفة إن كل الذين مع عبد الله ود سعد قد قتلوا. وهؤلاء كما ذكر كان عددهم بين 2000-2500رجل. وهؤلاء هم الذين شهدوا الموقعة نفسها. ولكن أيضاً وبعد الموقعة مباشرة انتشرت خيول الأنصار ولمدة ثلاثة أيام على طول منطقة الجعليين شمالاً وغرباً حتى وصلت إلى إبى طليح وجاوزته حتى وصلت أماكن الحسانية قريباً من الجكدول متعقبة

الهاربين حتى أهلكتهم. ومن بين القتلى أكثر رؤساء الجعليين.[23] ويبدوا أن الفوضى عمت المنطقة بأكملها إذ تصعب السيطرة على الجيش المنتصر في مثل هذه الحالات.

ولم تقف أثار الموقعة عند القتل وحده. وإنما عانت المنطقة أيضا من التشريد والتخريب والتدمير. مثلا الأنصار الذين انتشروا على طول المنطقة ، أخذوا الغنائم من السكان التي شملت كل الممتلكات من ثروة حيوانية ومحاصيل وأموال ورقيق والنساء. وأصاب الذعر المواطنين الذين اضطروا إلى هجر قراهم والنزوح إلى المناطق النائية بحثاً عن النجاة. فقد عبر معظمهم نهر النيل إلى الضفة الشرقية ومن ثم توغلوا في البطانة ووصل بعضهم منطقة العركيين. وأهتم الخليفة غاية الاهتمام بأمر تأمين الأهالي بعد المعركة. وأمر محمود أن يعطى الأمان لكل من يطلبه منهم. وحرر الخليفة نفسه ((الأمان الكافي لكافة أهالي عمالة بربر)) [24]. وطلب من محمود أن يتلوه على أهالي المنطقة وأن يرسله إلى زعماء الجعليين ليتلوه كل منهم على جماعته. كذلك حذر الخليفة الأنصار من التعرض للذين لم ينضموا إلى عبد الله ومسعد لا في أنفسهم ولا في أموالهم ولا في جميع متعلقاتهم واذا اخذ منهم شي امر الخليفة بإعادته إليهم [25].

ومن جانبه فقد عمل محمود جاهداً لتأمين الأهالي وحمايتهم .وأخذ يكتب الأمان والثبات حتى للذين نزحوا من أماكنهم مثل الكتياب. وحينما لم يجد ذلك أرسل لهم من طرفه مناديب ليمروا على كل القرى لتأمين الأهالي [26].

ولم تسلم الضفة الشرقية أيضا من التخريب على الرغم من أن الجيش الرئيسي كان يسير على الضفة الغربية. وكان الخليفة في جهوده لصد الجيش الغازي قد أرسل جيشاً أخر على الضفة الشرقية للنيل بقيادة فضل الحسنة وعبد الله حامد. ووصل الجيش إلى منطقة الحوش بالقرب من شندي على الرغم من أن سكان تلك المناطق لم يكن لهم أي دور فيما حدث في المتمة إلا أن منطقتهم أصابها الخراب بسبب مرور الجيش عليها. وأخذ أهالي المنطقة يشتكون مر الشكوى من تعدى الأنصار عليهم وأخذ ممتلكاتهم وضرب البعض بالرصاص حتى صارت مثل الجهة الغربية في الخراب [27]. وحتى لا تتفاقم المشكلة أكثر فأكثر أمر محمود أن يعبر هذا الجيش إلى الضفة الغربية لينضم إلى جيشه.

وقد أثارت هذه المعاملة التي وجدها أهالي منطقة الجعليين ككل غضب الخليفة خاصة حينما تناهى إلى سمعه أن بعض أفراد الجيش كانوا يتفوهون بأحاديث تنم عن أنهم يسعون إلى الثأر مما حدث من الزبير باشا حينما كان في دارفور .وأرسل الخليفة إلى محمود لينهاهم عن ذلك لأن هذا الأمر في رأي الخليفة(لا يصدر من عاقل إذ أن هذا هو الأمر الذي أتى عليه المهدي المنتظر وهو الدين الذي لا هراء فيه) [28].

من المواضيع الهامة التي دار حولها لغط كثير موضوع النساء اللائي وقعن أسرى في يد الأنصار بعد الموقعة . وتشير الخطابات المتبادلة بين الخليفة عبد الله ومحمود ود أحمد إلى اهتمام كليهما بهذا الأمر لحساسيته. فقد تم حصر هؤلاء النساء بعد الموقعة وتصنيفهم إلى حرائر ورقيق أما الرقيق فقد تم حصره وإخراج الخمس منه والذي بلغ قدره أربعاً وثلاثين ومائتي خادمة. وأرسلت هؤلاء إلى بيت المال بأم درمان ومعهم كشف يحوى أسماءهن وجنسياتهن[29]. وبلغ خمس الخمس من النساء الأبكار حوالي أثنين وثلاثين بنتاً، هؤلاء أيضا أرسلن إلى أم درمان بالوابور. أما كبار السن من النساء اللائي لا نفع منهن ولا يقدرن على الخدمة فقد بلغ عددهن ستمائة إمراة ومعهن بعض الأطفال .هؤلاء تم تسليمهن إلى أحد سكان المتمة وإسمه على محمد تاي الله وأشترط عليه محمود أن يبقيهن عنده أمانة إلى حين رفع أمرهن إلى الخليفة ليقرر بشأنهن [30]. وقد وافق الخليفة فيما بعد على إطلاق سراحهن جميعاً وتسليمهن إلى أهلهن [31].

ويبدو أن المعاملة التي تعرضت لها هؤلاء النساء كانت من المسائل التي أثارت غضب الخليفة. وأرسل إلى محمود يلومه على تأخر إرسالهن وعلى وقوع بعضهن بيد الجهادية ويلومه على هذا التهاون خصوصاً في أمر النساء الحرائر. وضرب له المثل بالفتوحات التي تمت في عهد المهدي وكيف أن المهدي لم يمكن أحد الجهادية من حرة مطلقاً. ويستفسر من محمود إن كان ما حدث قد حدث بعلمه أم أنه على وجه السرقة والغلول ويصف ما حدث بأنه شيء كبير و متفاحش[32]. وأعتذر محمود للخليفة عن ذلك وذكر أنه بذل كل ما في وسعه لأجل صيانة هؤلاء النساء، ولكنه يعترف أن الطامع والسارق لا يمكن انعدامهم من بين أفراد جيشه خاصة وأن الغلول في الغنائم أمر قديم [33].

أما الغنائم الأخرى فقد كان الخليفة مهتماً بها أشد الاهتمام وظل ينبه محمود إلى ضرورة أن يجتهد كل الاجتهاد في جمعها خاصة الذرة والزوامل من جمال وحمير وخيول وخلافها ،وكذلك العبيد الذكور ،وطلب منه أن يصنفها ويستخرج منها الخمس. وعرض عليه أن يرسل إليه إحدى الوابورات لأخذ الغنائم إذ خشي من ضياعها [34].

وبالفعل فقد أرسلت الغنائم إلى أم درمان ماعدا الأبقار التي طلب محمود من الخليفة أن يسمح له بإبقائها عند أصحابها حتى يعمروا بها السواقي. وكان محمود يشتكي من ندرة الأعشاب بالمنطقة وان ما يوجد فيها لا يكفي الخيول والبهائم.ولكن رغم ذلك يبدو أن أعداداً كبيرة من الأبقار وقعت في أيدي أفراد الجيش فصادرها محمود وأرسل منها ألف رأس إلى أم درمان وذلك قبيل تحركه من المتمة شمالا [35].

والواضح أن محمود أقام في المتمة لبعض الوقت .ومن مقر إقامته فيها بدأ ينظم شئون المنطقة الإدارية. فقام بتعيين الزاكي عثمان على بربر خلفاً ليونس الدكيم الذي استدعاه الخليفة إلى أم درمان. وعين على شندي شرف الدين هاشم، وعلى الكتياب عبد القادر دليل أحد قادة جيشه.

كذلك أقام محمود نقاطاً للمراقبة في كل من ود بانقا على الضفة الشرقية وبالقرب من جزيرة نسري على الضفة الغربية وذلك بهدف مراقبة الطريق وعدم السماح للجهادية بالتوجه إلى ام درمان [36].

ومع تقدم الجيش الإنجليزي جنوبا يبدو أن محمود بدأ يشعر بضعف موقفه. وقد كانت منطقة الجكدول التي تقع إلى الشمال الغربي من المتمة مصدر قلق دائم لجيش الأنصار في المتمة. واتخذ الإنجليز منها مركزاً لتجميع القبائل المناوئة للخليفة مثل الهواوير والسواراب والقريات والحسانية والمناصير والجعليين وقاموا بتزويدهم بالأسلحة والذخائر. كذلك كان الانجليز يرسلون منها الطلائع إلى مناطق الكتياب ووادي بشارة وأبو طليح وذلك لمعرفة جيش الأنصار. وكان محمود مهتماً لأمر هذه التحركات واقترح على الخليفة أن يهاجم هؤلاء العربان ويحاربهم [37].

هذه التحركات في منطقة الجكدول ووصول جيش الحملة بالقرب من بربر جعل محمود يفكر في إخلاء سكان المنطقة خاصة الذين يسكنون على الضفة الغربية.فبالإضافة إلى أن أعداداً من الجعليين انضموا إلى الإنجليز بجهة الجكدول فإن الذين بقوا منهم كان محمود يشتكي من عدم تعاونهم معه ولذلك اقترح على الخليفة ترحيلهم إلى جهة الصعيد ويعتقد أن ذلك أسلم لهم في دينهم وأنفسهم [38].

وقد اتصل به بعض سكان المنطقة من تلقاء أنفسهم وطلبوا منه الإذن لهم بالتوجه إلى أم درمان. ومن هؤلاء العوضية والجبلاب والمغاوير بالإضافة إلى بعض الأفراد. وأذن لهم محمود بالسفر إلى أم درمان، وربما كان هؤلاء من الذين ظلوا على ولائهم للمهدية .

أما الذين بقوا من أهالي المنطقة فقد بدأ محمود في تهجيرهم. فقد أمر عبد القادر دليل أمير منطقة الكتياب أن يأخذ أهالي البلد شرقاً وغرباً ويرسلهم إليه في المتمة ويرسلهم هو بدوره إلى أم درمان [39].

وبدأ محمود يفقد الثقة في سكان المنطقة التي تقع جنوب المتمة والتي أعلن سكانها ولاءهم للمهدية منذ البداية ولم يشتركوا مع عبد الله ودسعد. وبدأ يشك في أهالي جزيرة نسري التي منها زعيم المنطقة أحمد ود جاد الله الذين ربما كان لهم اتصال بالإنجليز في منطقة الجكدول، فأمر بترحيل كل أهالي الجزيرة وأخذ كل ما وجده بها من محاصيل لغذاء الجيش. وعلى الرغم من أن الخليفة وافق على قرار ترحيلهم إلى ام درمان إلا أنه أعترض بشدة على قرار مصادرة ممتلكاتهم وأمر بردها إليهم حتى يحضروها معهم إلى ام درمان ليتعيشوا بها خاصة إنهم مسلمون وتحت الطاعة [40].

لم تكن موقعة المتمة هي الصدام المسلح الوحيد الذي وقع بين الجعليين وقوات المهدية. ويبدو أن روح الثورة قد انتشرت على طول المنطقة خاصة الضفة الغربية حتى وصلت إلى أقصى حدود ديار الجعليين الشمالية. فبينما كان عبد الله ودسعد يستعد لمقابلة قوات محمود في المتمة كانت المنطقة الشمالية الغربية التي تمتد من الزيداب جنوبا وحتى الفاضلاب شمالاً تستعد لخوض معركة أخرى ضد قوات المهدية وذلك فيما عرف بموقعة الفاضلاب [41].

ولا يعرف على وجه التحديد الأسباب المباشرة التي أدت إلى هذه الموقعة ولكن ربما كان لاتصالات عبد الله ودسعد مع مختلف زعماء الجعليين بعد عودته من أم درمان من اجل إثارتهم ضد المهدية هي التي شجعت الزعماء في هذه المنطقة على إعلان الثورة. وربما شجعهم على ذلك أيضاً قرب وصول قوات الجيش الغازي إلى منطقة بربر.

تزعم الجعليين في هذه المنطقة حسنين ود برى عامل المهدية في منطقة الزيداب وانضم إليه زعماء المناطق المجاورة في كل من التميراب وأم الطيور والفاضلاب و المكابراب والكبوشاب وأبو حراز، وكانت قوات حسنين ود بري تزداد كلما توغل شمالاً.

كان عامل المهدية في المنطقة حينذاك هو علي فرفار وكان يقيم بقواته في بربر. وحينما ترامت إليه أخبار بداية هذا العصيان أرسل من جانبه رسلاً إلى المنطقة لنصيحة زعماء الحركة وإثنائهم عما عزموا عليه. ولما لم تثمر جهوده هذه ما كان منه إلا أن استعد للقضاء عليها. وأختار للقيادة أحد قادته الأكفاء وهو البخيت النموري الذي عبر بقواته إلى الضفة الغربية لمقابلة الثوار[42]. دارت الموقعة في منطقة الفاضلاب يوم 2صفر1315هـ/ 3 يوليو1897م. ولم تجد قوات المهدية صعوبة تذكر في هزيمة الثوار وسحقهم بسهولة.وقتل عدد كبير من الجعليين بالإضافة إلى كل قادتهم الذين قطعت رؤوسهم وأرسلت إلى الخليفة في أم درمان. ويبدو أن ما حدث في المنطقة الجنوبية بعد موقعة المتمة من تدمير وتخريب تكرر مرة أخرى في المنطقة الشمالية. .

ومن الواضح أن منطقة الجعليين بأكملها أصبحت تحت رحمة قوات المهدية لفترة طويلة [43].

إذ ظل الوضع على ما هو عليه إلى أن اتضح للخليفة أن حملة الغزو لن تسلك طريق الصحراء وإنما هي قادمة على النيل وبالتالي تقرر أن تكون المعركة في منطقة عطبرة التي شهدت موقعة النخيلة في 8 ابريل 1897م والتي انهزمت فيها قوات المهدية بقيادة محمود ود أحمد.

ومما سبق يتضح أن الجعليين ظلوا على ولائهم للمهدية في بداية حملة الغزو واحتلال دنقلا في عام 1896م. ثم حدث الخلاف بين الجانبين حينما طلب الخليفة من زعيم الجعليين عبد الله ودسعد أن يخلي المتمة لتعسكر فيها قوات المهدية التي أرسلت لصد حملة الغزو التي

توقع الخليفة أن تأتي عن طريق الصحراء. وبعد الموقعة تعرضت المنطقة للدمار والتخريب وقتل عدد كبير من سكانها وعلى الرغم من أن الخليفة نفسه حاول أن يمنع ذلك إلا أن قواته المنتصرة كانت تصعب السيطرة عليها. وربما كانت هذه الموقعة هي الفصل الأخير في الصراع بين الخليفة والقبائل النيلية ذلك الصراع الذي بدأ منذ وفاة المهدي في يونيو 1885م.

الخريطة التالية توضح أهم الأماكن في منطقة الجعليين في فترة المهدية

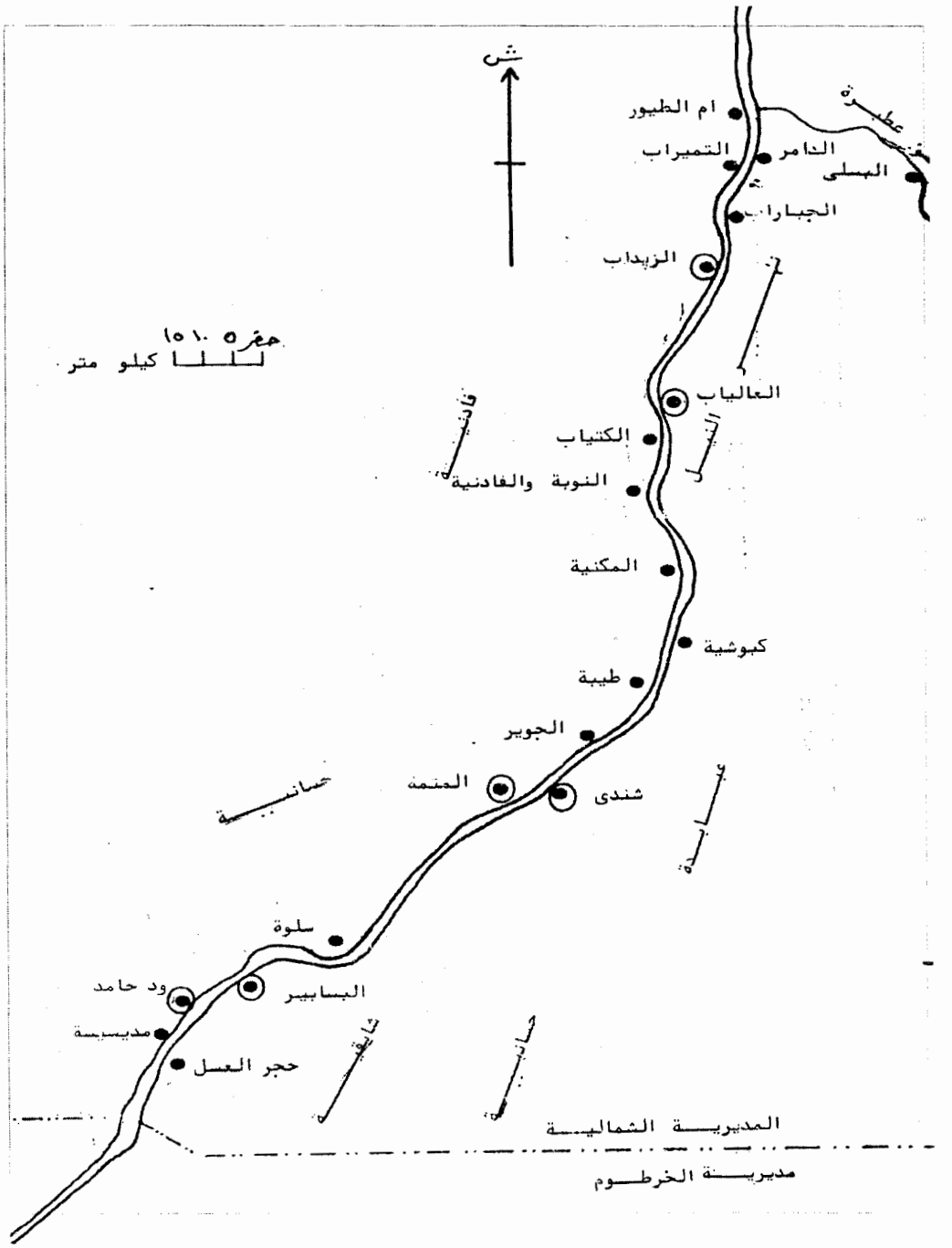

الهوامش :-

(1) شقير، نعوم : جغرافية وتاريخ السودان ،دار الثقافة ، بيروت 1967م، ص 787.

(2) نفس المصدر، ص 787

(3) نفس المصدر، ص830

(4) نفس المصدر، ص841

(5) نفس المصدر، ص 843

(6) توفي إستيوارت متأثراً بجراحه يوم7/فبراير 1885في المنطقة بين أبو طليح و الجكدول أثناء تقهقر حملة الإنقاذ بعد فشل مهمتها ودفن في الجكدول

(7) شقير، نعوم : المصدر السابق، ص875

(8) نفس المصدر، ص845

(9) تشير بعض الروايات المتداولة في المنطقة أنه وبعد وفاة المهدي مباشرة إجتمع الجعليون وكانوا ينوون الخروج على المهدية إلا أن بعضهم ومنهم عبدالرحمن النجومي أعترض على ذلك .(أنظر دياب ، جعفر محمد : تاريخ الإدارة الأهلية في منطقة الجعليين . 1898 – 1955م ، رسالة دكتوراه ، جامعة الخرطوم 1998م، ص41).

(10) شقير ، نعوم المصدر السابق ، ص1225.

(11) نفس المصدر ص ص1224 –1225.

(12) Cairint, 1/50/29, Report On The Fate Of Jaalin At Metemma 1897,N.R.O.Kartoum.

(13) Ibid

(14) Intel, 6/3/11, Intel, Report Egypt No, 54,1897, N.R.O.Khartoum.

(15) هذه الرسائل المتبادلة بين الخليفة عبد الله ومحمود ود أحمد محفوظة جميعها في دار الوثائق القومية بالخرطوم بالملف (مهدية 15/1 المجلد الأول) وعليه سوف أشير إليها فيما بعد باسم الراسل والمرسل إليه والتاريخ فقط:

(16) محمود إلى الخليفة ، 26محرم 1315هـ.

(17) محمود إلى الخليفة ،غاية محرم 1315 هـ

(18) Intel /6/3/11,Ob ,Cite.

(19) محمود إلى الخليفة ،غاية محرم 1315

(20) تشير بعض الروايات إلى أن الخليفة عبد الله حينما طلب من عبد الله ودسعد أن يخلي المتمة لتكون معسكراً لجيوش الأنصار، رفض زعيم الجعليين ذلك وقال قولته المشهورة ((أنا حتى الآن حارقاني في قولت قومت نمر من شندي)) في إشارة إلى ما حدث من المك نمر حينما هاجمه الدفتردار .

(21) محمود إلى الخليفة ،7 صفر 1315 هـ

(22) Intel, 6/3/11. Ob, Cite.

(23) محمود إلى الخليفة ، 7/صفر 1315 هـ

(24) الخليفة إلى محمود ،غاية محرم 1315 هـ

(2) الخليفة إلى محمود ،6 صفر 1315 هـ

(26) محمود إلى الخليفة ،8 صفر 1315 هـ

(27) محمود إلى الخليفة 2/ربيع الأول 1315 هـ

(28) الخليفة إلى محمود، 24صفر 1315 هـ

(29) محمود إلى الخليفة ،29 صفر 1315 هـ

(30) محمود إلى الخليفة ،28 صفر 1315 هـ

(31) الخليفة إلى محمود ، 5/ربيع الأول 1315 هـ

(32) نفس المصدر .

(33) محمود إلى الخليفة ،7 /ربيع الأول 1315 هـ

(34) الخليفة إلى محمود ، غايـــة محرم 1315 هـــ

(35) محمود إلى الخليفة ، 20 ربيع الأول 1315 هـــ

(36) محمود إلى الخليفة ، 15 ربيع الأول 1315 هـــ

(37) محمود إلى الخليفة ،23 ربيع الأول 1315 هـــ

(38) محمود إلى الخليفة ،4ربيع الآخر 1315 هـــ

(39) محمود إلى الخليفة ،15 ربيع الآخر 1315 هـــ

(40) الخليفة إلى محمود ، 12جمادي الأول 1315 هـــ

(41) للمزيد من المعلومات حول هذه الموقعة أنظر ، دياب ، جعفر محمد ، المصـــدر السابق، ص ص50 -52 .

(42) مهدية 28/2 /المجلد الأول ، علي فرفار إلى الخليفة ،3صفر 1315هجرية ،دار الوثائق القومية ،الخرطوم.

(43) يذكر شقير أن محمود ود احمد حينما علم بسقوط أبي حمد وبربر عبر بجيشه إلى الضفة الشرقية للنيل يوم 20 فبراير 1898 م وبدأ يستعد لموقعة النخيلة . ومـــن هذا يتضح أن قوات المهدية ظلت في المنطقة طيلة الفترة من يوليـــو1897إلـــى فبراير 1898 م .ووصلت طلائع حملة كتشنر إلى شندي في 26 مـــارس 1898 وأطلقت سراح بعض الأسرى من الجعليين . شقير ،نعوم ،مصـــدر ســـابق ،ص 1229 .